

الاستعمار الجديد وتحول الثقافة إلى أداة للهيمنة

د. غيضان السيّد علي^١

المُلخَص

يتناول البحث الاستعمار الجديد بوصفه نمطاً خفياً من الهيمنة، تُتخذ الثقافة فيه أداة لإعادة تشكيل وعي الشعوب بما يخدم مصالح القوى الكبرى. ويركّز على أبرز مظاهر الهيمنة الثقافية، ومنها صناعة نخبة موالية للثقافة الاستعمارية، وتهميش اللغات الوطنية، وانتشار القيم الاستهلاكية الوافدة، وتشويه التراث الإسلامي وتصويره بوصفه غير ملائم للعصر، فضلاً عن فرض أنماط حياة غريبة، واستخدام المؤسسات التعليمية لنشر الثقافة الغربية. ويعتمد البحث المنهج التحليلي النقدي لتفكيك هذه المظاهر، وبيان آثارها في الهوية الثقافية، واقتراح آليات لمواجهتها، أبرزها تنمية الوعي النقدي، وإنتاج ثقافة مستقلة منفتحة على المعاصرة، وتطوير التعليم الوطني، وتشجيع الأدب والفنون المعبرة عن الهوية. ويخلص البحث إلى أنّ حماية الثقافة الإسلامية وتعزيز حضورها يمثلان ضرورةً وجوديةً لمواجهة أشكال الهيمنة الناعمة والتخلّص من الإرث الاستعماري، وتحقيق حياة طيبة قائمة على الاعتزاز بالذات والانفتاح الواعي.

الكلمات المفتاحية: الاستعمار الجديد، الهيمنة الثقافية، القوة الناعمة، طمس المرجعية، أصالة الذات، الحياة الطيبة.

مقدمة

لم تعد الهيمنة في العصر الراهن تعتمد على القوة الخشنة التي تتمثل في الجيوش النظامية والاحتلال الصريح، وإنما باتت تعتمد على القوة الناعمة التي تتمثل في الثقافة، والتعليم، والإعلام. وهي في عمومها منتجات ثقافية تؤثر سلباً في تحقيق الحياة الطيبة. وفي ظل العولمة أصبحت الثقافة الغربية النموذج المهيمن من خلال وسائل الإعلام العالمية، وصناعة السينما، والمناهج التعليمية، واللغة الانجليزية التي تحولت إلى أداة اختراق رمزية؛ مما جعلنا نقول إن الاستعمار الجديد قد حلّ محلّ الاستعمار القديم كأداة إمبريالية.

فالاستعمار الجديد هو شكل من أشكال الاستعمار أكثر خفاءً وتأثيراً من الاستعمار القديم، فإذا كان الأخير يعتمد على القوة الخشنة فإن مثل هذه القوة قد تبني الإمبراطوريات لكنها لا تضمن لها الاستمرار والدوام؛ إذ إن الرؤوس والهمم قد تنحني أمام المدافع لكن تبقى نار الثأر واسترداد الكرامة والرغبة في الانتقام ممن اعتدى على الأرض والعرض كمراجل تغلي في النفوس، وتنتظر الفرصة السانحة لقلب كل شيء. أما الأول فغايتة إخضاع النفوس بعد أن تم إخضاع الأبدان؛ إذ يجري داخل العقول والنفوس، ثم ينتقل إلى الأخلاق والعادات والتقاليد ويخطط له علماء النفس والاجتماع، وأجهزة الاستخبارات، وإدارات الاحصاءات المختلفة. وقد وجدت فيه القوى الاستعمارية ضالتها بعد أن أرهقتها تكاليف الاستعمار القديم.

ويعتمد الاستعمار الجديد في المقام الأول - مع آليات أخرى - على الثقافة بوصفها أداة للهيمنة، فعن طريق الثقافة يُعاد صياغة وعي الشعوب وتوجيهه لما يخدم مصالح القوى الكبرى. وعن طريقها - أيضاً - يتم إنتاج منتجات ثقافية قادرة على تشكيل العقول وطمس المرجعيات والهويات. وتتجلى أشهر آليات الاستعمار الجديد لفرض الهيمنة الثقافية في بلادنا، من خلال: صناعة نخب موالية للثقافة الاستعمارية، وتهميش اللغات الوطنية، وتراجع القيم الأصيلة أمام قيم استهلاكية وافدة، وتصوير التراث الإسلامي الأصيل بصورة بالية مشوهة، والزعم بأنه غير صالح لمتطلبات الحياة المعاصرة، وفرض نمط حياة غربي يعيد تشكيل الوعي الجمعي، واستخدام الجامعات الغربية في البلدان العربية والإسلامية لنشر الثقافة الغربية.

هنا تكمن أهمية هذا البحث في أنه يهدف إلى دراسة العلاقة بين الاستعمار الجديد والثقافة بوصفها أداة للسيطرة الفكرية والرمزية، كما يسعى إلى كشف آليات السيطرة التي تمارسها القوى الكبرى من خلال ما يُعرف بالقوة الناعمة، وبيان أن الاستعمار الجديد أخطر من سابقه؛ لأنه يعمل

على إعادة إنتاج التبعية الفكرية والثقافية مما يجعل الشعوب المستعمرة تتبنى قيم المستعمر دون وعي. كما يعمل البحث على تفكيك المركزية الغربية التي تفرض معاييرها كمرجعٍ وحيدٍ للحقيقة والتقدم. لتتسنى على إثر ذلك دعوة المثقفين العرب والمسلمين إلى إعادة إنتاج ثقافةٍ مستقلة تستند إلى التراث الإسلامي الأصيل المتمثل في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وخطابات آل البيت الكرام عليهم السلام مع الانفتاح على التحديات المعاصرة، والأسئلة الثقافية الكبرى عبر آليات التعليم التحرري الذي يُحرر ولا يُلقن، والتفكير الذاتي المستقل. حتى يتسنى لنا الوصول إلى آليات حقيقية لمقاومة الهيمنة الثقافية الاستعمارية تتمثل في: الوعي النقدي والقدرة على الانتقاء بين ما هو مفيد وما هو مدمر للهوية.

ويحاول هذا البحث أن يجيب على عدد من الأسئلة المحورية التي تشكل الإجابة عنها بنية هذا البحث، ولعل أهم هذه الأسئلة: ما المقصود بالاستعمار الجديد؟ وما المقصود بالهيمنة الثقافية؟ وكيف يتم استغلال الثقافة لإعادة صياغة وعي الشعوب وتوجيهه لما يخدم مصالح القوى الاستعمارية الكبرى؟ وما هي مظاهر الاستعمار الثقافي في عالمنا العربي والإسلامي؟ وما هي آليات مقاومة الهيمنة الثقافية؟ وكيف يمكن بناء ثقافة إسلامية تستند إلى تراثنا الإسلامي الأصيل لتحقيق الحياة الطيبة؟

أولاً: مفهوم الاستعمار الجديد

إن جوهر الاستعمار الجديد هو أن الدولة التي تخضع له مستقلة من الناحية الشكلية، ولها كل مظاهر السيادة الخارجية. غير أن كافة أنظمتها الداخلية مستعمرة، وبالتالي تكون سياساتها الداخلية والخارجية موجهة من الخارج لصالح المستعمر الجديد الذي استطاع أن يفرض وصايته الكاملة عبر آليات مختلفة تم الإعداد لها مسبقاً بعناية فائقة؛ لدرجة يمكن القول معها إن الدولة التي في قبضة الاستعمار الجديد ليست سيّدة مصيرها.

إن الاستعمار الجديد -على حدّ تعبير أحد الدبلوماسيين الغربيين- هو إجابة واستجابة مباشرة لعدد من أسئلة المواطن الغربي الراهن، من قبيل: «لماذا على المواطن الغربي، وبالذات سائق السيارة المنتظر عند محطة البنزين، أن يتحمّل على مضض وبصمت، التهديد اليومي الدائم لطريقة حياته ومعيشته، المتوقفة على مزاج عدد من الشيوخ العرب وآيات الله الإيرانيين؟ بل بأيّ حقّ أخلاقيّ للدول المصدرة للنفط، والتي لم يكن لها أيّ دور على الإطلاق في اكتشاف هذا الذهب السائل، يسمح لها أن تلعب بمصير الحضارة الغربية كلّها؟ ... أليس هناك التزامٌ بضرورة عودة الاستعمار كوسيلة وحيدة لتحقيق استقرار العالم؟»^١.

١. نجيب الرئيس، رياض، عودة الاستعمار، فصل بكتاب: عودة الاستعمار من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج، ص ٢٤-٢٥.

في الاستعمار الجديد يُستخدم رأس المال الأجنبي في استغلال البلاد المستعمرة أكثر ممّا يُستخدم للنهوض بها؛ إذ إنّ الاستعمار الجديد يعمل على توسيع الهوة - لا تضيقها - بين الدول الغنيّة والدول الفقيرة. ولا يستهدف النضال ضدّ الاستعمار الجديد منع رأس مال الدول المستعمرة من أن يُستثمر في البلاد المستعمرة بقدر ما يستهدف منع سلطة الدولة المستعمرة من أن تعمل على زيادة فقر الدول المستعمرة^١. وحتى تتفادى الدولة المستعمرة الوقوع في التناقض ويبدو الاستعمار الجديد جذاباً في عيون أهل الدولة المستعمرة فإنّها تحاول أن تظهر بمظهر النظام الذي يرفع مستوى معيشتهم — وهو على العكس من ذلك تماماً — فيلجأ إلى لعبة (المعونات)، وهي لعبة ما زالت تنطلي على كثير من الشعوب الواقعة بالفعل تحت نير الاستعمار الجديد، حيث تكون هذه (المعونة) عبارة عن قرض يدفعه السيّد المستعمر، ثم يستعيده مرةً أخرى على شكل أرباح طائلة، ممّا يؤدّي إلى إفقار وتدني معيشة أهل الدول المستعمرة، وهو الهدف الأسمى وعين المطلوب من وجهة نظر الاستعمار الجديد.

ولا يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ من الانهيار الاقتصاديّ للدول المستعمرة، بل إنّ الدول المستعمرة لا تعطي قروضها وتكتفي بالفوائد فقط، بل تعمل على توجيه بعض السياسات داخل هذه الدول المستعمرة كشرط للموافقة على القرض، ويأتي على رأس هذه الشروط: خصخصة القطاعات العامة، وتقليص الدعم الاجتماعيّ، ومحو أيّ أثر للنظام الاشتراكيّ داخل هذه الدولة المستعمرة؛ لأنّه كما يقول كوامي نكروما: «إنّ وجود الدول الاشتراكية يجعل من المستحيل فرض نظام الاستعمار الجديد بحذافيره»^٢. فإلغاء القطاع العام، وتقليص الدعم الموجه من الدولة نحو المواطنين يزيد من كاهل الأعباء عليهم فيسخطون على النظام الحاكم الذي يفقد شعبيّته تدريجياً بمرور الأيام مع زيادة الأعباء، وكثرة الضرائب، وغلاء الأسعار، وتدهور الخدمات، وزيادة التبعية الاقتصادية، وتدني قيمة العملات المحليّة، وانعدام فرص العمل فيبحث النظام الحاكم عن التأييد الخارجي الذي يتمثّل في الدولة المستعمرة التي توهمه به، حتى ترى مصلحتها في تغييره، فتوحي - وقتها - لمراكز قواها في هذه الدولة فتقوم بتغييره بالطريقة التي تراها مناسبة.

كما يحوّل الاستعمار الجديد بين الدول المستعمرة وبين دخولها في اتحادات إقليمية أو أممية حتى تظلّ منقاداً له، أسيرة لتوجيهاته وإرشاداته التي تصبّ في مصلحته هو. بل إنّ يعمل بكلّ ما

١. نكروما، كوامي، الاستعمار الجديد آخر مراحل الإمبريالية، ص ٤.

٢. المصدر السابق، ص ٩.

أوتي من قوّةٍ ودهاءٍ على تفتيت الدول المستعمرة الواسعة إلى عددٍ من الدويلات الصغيرة التي لا تستطيع النهوض بنفسها، ويخلق بينها نوعاً من التناحر، حتى تعتمد هذه الدويلات على الدولة المستعمرة لتتولّى الدفاع عنها، بل ولتحتفظ لها بأمنها الداخلي^١.

إذاً الاستعمار الجديد يعني «خلق قضيةٍ فيها كلّ مواصفات الإقناع، ولياقة المنطق، وقوّة حجة الاقتصاد، وتبريرات السياسة، تدعو الغرب إلى إعادة استعمال هذه المنطقة (المستعمرة سابقاً) التي هي بمثابة حبل الوريد لكلّ مصالح العالم الغربي»^٢.

يمكن القول إنّ الاستعمار الجديد هو شكلٌ حديثٌ من السيطرة تمارسه الدول أو القوى الكبرى على دول أخرى دون احتلال عسكريٍّ مباشر، وذلك عبر وسائل ثقافية، واقتصادية، وسياسية، وإعلامية. حيث تتمثل الوسائل الثقافية في فرض قيم، وثقافات، وأنماط حياة معينة عبر الإعلام، والتعليم، واللغة، إلى جانب إضعاف الهوية الوطنية والثقافة المحلية. أمّا الوسائل الاقتصادية فتتمثل في التحكم في اقتصاد الدول الضعيفة عبر القروض، والشركات متعددة الجنسيات، والمؤسسات المالية الدولية، إلى جانب ربط اقتصاد الدولة بالسوق العالمية بنحو يخدم مصالح الدول الكبرى. في حين يمكننا تلخيص الوسائل السياسية في دعم أنظمة سياسية أو التأثير في القرارات السيادية بما يضمن مصالح القوى الكبرى إلى جانب التدخل غير المباشر في الشؤون الداخلية.

كما يمكننا أن نضيف وسائل أخرى لعلّ أبرزها التبعية التكنولوجية والعلمية حيث احتكار التكنولوجيا والمعرفة المتقدمة؛ ممّا يجعل الدول النامية معتمدةً على الدول المتقدمة. ومن ثمّ فالاستعمار الجديد لا يستخدم الجيوش، بل يستخدم الثقافة، والاقتصاد، والسياسة، والإعلام، والتكنولوجيا للسيطرة على النفوس والأبدان معاً.

والاستعمار الجديد هو أيضاً أسوأ شكلٍ من أشكال الإمبريالية؛ إذ هو بالنسبة لأولئك الذين يمارسونه يعني السلطة بدون مسؤولية، وبالنسبة لأولئك الذين يعانون منه هو الاستغلال دون تعويض. ففي أيام الاستعمار القديم، كان على السلطة الإمبريالية أن تبرر أعمالها في الخارج أمام شعبها، أمّا في البلاد المستعمرة نفسها، فقد كان من يخدمون الحاكم الإمبريالي يتطلّعون إلى أن تقوم الدولة الإمبريالية بحمايتهم ضدّ أيّ عدوانٍ من جانب خصومهم. مع الاستعمار الجديد ما عاد الحال كذلك، فلم يعد هناك أيّ وجهٍ من الوجهين^٣.

١. المصدر السابق، ص ٨.

٢. نجيب الرئيس، رياض، عودة الاستعمار، ص ٢٤.

٣. نكروما، كوامي، الاستعمار الجديد آخر مراحل الإمبريالية، ص ٦-٥.

أمّا النقطة الوحيدة التي لا يتفوّق فيها الاستعمار الجديد على الاستعمار القديم فهي أنّ الدول المستعمَرة مهما كانت سيطرة الدولة المستعمَرة عليها قويّة إلا أنّ للأولى بحكم استقلالها الشكليّ بعض النفوذ، فهي وإن كانت غير قادرة على الوجود دون سيّد مستعمر إلا أنّ في مقدورها أن تغيّر هذا السيّد^١. ومن أجل هذا عملت الدول المستعمَرة على إحكام قبضتها عبر الهيمنة الثقافيّة التي تتوخى الهيمنة على العقول وتوجيه الأفكار، فلا تفكّر هذه الدول في تغيير هذا السيّد.

ثانيًا: الثقافة بوصفها أداة للهيمنة

لمّا كانت الثقافة هي الأداة الموجهة للإنسان في كافة نشاطاته؛ إذ إنّها تشكّل الفكر والرأي والتوجّه؛ لذلك كانت الثقافة بالنسبة للإنسان بمنزلة الروح من الجسد، فمن يسيطر عليها يستطيع الهيمنة على الأفراد، والجماعات، والدول، والأمم. وتعني الهيمنة الثقافيّة في معناها العام «فرض ثقافة معيّنة من المتسلّط، على المتسلّط عليه بشكلٍ ظاهر أو خفي»^٢، وتوجيه دقّة الإنسان والمجتمع توجيهًا أيديولوجيًا. إذا لم تعد الثقافة اليوم مجرد نتاج إنسانيّ يعكس التقاليد والقيم المحليّة، بل أصبحت أداة مهمّة يمكن التأثير من خلالها على الفرد والجماعة وتوجيهها لتخدم أغراضًا معيّنة. فالثقافة، بوصفها مجموع القيم والرموز والأفكار والتقاليد، تمثل أداة قويّة ووسيلة فعّالة لتشكيل العقول والتأثير على السلوك.

كما أنّ هيمنة الغرب الثقافيّة هي عملية تستخدم فيها الدول الغربيّة قوّتها الناعمة لفرض قيمها وأنماط حياتها على المجتمعات الأخرى، سواء أكان ذلك من خلال الإعلام، أم التعليم، أم الفنون، أم التكنولوجيا. هذه الهيمنة تعمل على نشر فكرة أنّ القيم الغربيّة، مثل: الحرية الفرديّة، والديمقراطيّة الليبراليّة، والسوق الحرّة، هي طبيعيّة وحتميّة لتقدّم البشريّة، بينما تُهمّش الثقافات الأخرى وتُصوّرُها على أنّها متخلّفة أو غير متماشية مع العصر الحديث^٣. وقد دأبت الدول الغربيّة منذ عهد الاستعمار القديم على (غربنة) أو (تغريب) ثقافة الأمم المستعمَرة؛ لأنّها رأت في ذلك

١. المصدر السابق، ص ٥-٦.

٢. كريم سلمان، سعدي، مخاطر الهيمنة على الهوية الثقافيّة وسبل التعامل معها، مقالٌ إلكترونيّ تمّ الاطلاع عليه في ٢٠٢٦/١/٧، على الرابط الآتي

<https://nawaat.org/2005/01/30/cultural-identity-recuperation/>

٣. رّخال، عمر، الاستعمار الثقافيّ: كأداة للرأسماليّة للهيمنة الأيديولوجيّة لتحويل قيمها المحليّة إلى معايير عالميّة، مقالٌ إلكترونيّ تمّ الاطلاع عليه في ٢٠٢٦/١/٨، على الرابط التالي: <https://www.wattan.net/ar/news/453274.html>.

السبيل الأمثل لإتمام سيطرتها على تلك الأمم فتضمن بذلك انتهاء المقاومة، والاستسلام التام والتبعية الكاملة.

إن أهداف الهيمنة الثقافية ترمي إلى نشر ثقافة الطرف المهيمن، وضرب الثقافات المحلية أو القومية، من أجل سيادة نموذج واحد للتفكير، ونشر قيم معينة، والعمل على تعطيل العقول في ثقافة الآخر عن الإبداع. ويبقى الهدف الأكبر للهيمنة الثقافية الغربية تمثلاً في تسطيح الوعي، تلك المهمة التي تتولّى القيام بها ثقافة بأكملها، ثقافة جديدة تماماً لم يشهد لها التاريخ مثيلاً. إنها الثقافة الإشهارية الإعلامية السمعية البصرية التي تصنع الذوق الاستهلاكي (الاشهار التجاري)، والرأي السياسي (الدعاية الانتخابية)، وتشيد رؤية خاصة للإنسان والمجتمع والتاريخ^١. وذلك من أجل تحقيق الهدف الأسمى وهو إخضاع النفوس بعد إخضاع الأبدان؛ إخضاع الأبدان يتمّ بالمدفع، أما إخضاع النفوس فسلحه التعليم والثقافة، وقد أصبح إخضاع النفوس اليوم سهلاً بفضل التقدم الهائل لوسائل الاتصال السمعية البصرية ممّا قلب الأمر رأساً على عقب؛ إذ كان إخضاع الأبدان يسبق إخضاع النفوس ويمهد له، أما اليوم فخضاع النفوس يعدّ طريقاً لإخضاع الأبدان^٢. حيث يتمّ إخضاع النفوس عبر وسائل أرقى، منها: غزو العقل، وتكييف المنطق، وتوجيه الخيال، وصنع الأذواق، وقولبة السلوك، وترسيخ نوع معين من القيم، وتكريس إيديولوجيا خاصة، وإيديولوجيا الاختراق^٣. ولا يختلف الهدف من الاستعمار الجديد عن هدف الاستعمار القديم؛ إنه تلبية حاجيات الاقتصاد في هذه الحضارة؛ فإذا كانت حاجة الاستعمار الأوروبي القديم تتمثل في الحصول على المواد الأولية، فإن اليوم يحتاج اقتصاد الغرب إلى الأسواق الخارجية، إلى الشعوب المستهلكة لمنتجاته، وهذا ما لا يستطيع أن يحققه الاستعمار القديم، ولكن يستطيع الاستعمار الجديد عن طريق الهيمنة الثقافية فعل ذلك بكلّ أريحية.

لذلك لم يكن غريباً أن تحرص الدول الغربية على أن تستخدم الثقافة للسيطرة على الوعي الجمعي في دول العالم الثالث أو الدول المستعمرة الفقيرة، وتوجيه العقول لتشكيل العقول والوعي الجمعي بما يخدم أهدافها الإستراتيجية، سواء لتعزيز مصالحها الاقتصادية أو لتكريس نفوذها السياسي والعسكري. وتُمارس هذه الهيمنة من خلال نشر القيم الغربية بوصفها المعايير

١. عابد الجابري، محمد، المسألة الثقافية في الوطن العربي، ص ١٩٣.

٢. المصدر السابق، ص ١٩٠.

٣. المصدر السابق، ص ١٩٨-١٩٩.

العالمية الوحيدة المقبولة، وتسليع الثقافة لتصبح وسيلةً للتحكم في المجتمعات، خصوصاً في الدول النامية^١.

إنّ الهيمنة الأيديولوجية تعني قدرة الطبقة المهيمنة على فرض رؤيتها للعالم كمعيارٍ يتبع، وأنّ هذه الهيمنة لا تتحقّق بالإكراه، بل باستخدام القوى الناعمة كالثقافة والإعلام والرياضة والدين، وغيرها من أدوات القوى الناعمة.

ثالثاً: الشعوب المستعمرة تتبني قيم المستعمر دون وعي

تسعى الشعوب المهزومة دائماً إلى تقليد الشعوب المنتصرة في كلّ شيء، أو كما ذهب ابن خلدون في عبارته الشهيرة: «المغلوب مولعٌ أبداً بتقليد الغالب في شعاره، وزيّه، ونحلته، وسائر أحواله وعوائده»^٢. وتُفسّر هذه الظاهرة تفسيراً نفسياً واجتماعياً، فالشعوب المهزومة غالباً ما تُعجب بالقوّة والتقدّم في الثقافة المنتصرة، فتتنظر إليها كرمزٍ للكمال، فتقلّدها في المظهر والأسلوب، ظناً منها أنّ هذا التقليد هو سبيلٌ للتفوّق واستعادة الشعور بالقوّة، وهو ما يحدث عادةً من شعورٍ بالنقص ورغبة في محو أثر الهزيمة، وتُلاحظ هذه الظاهرة في التاريخ والواقع المعاصر؛ فمن النماذج المعبرة عن نموذج المنتصر هو النموذج الغربيّ؛ حيث أصبح هذا النموذج يشغل مكاناً مركزياً في فكر ووجدان معظم المفكرين والشعوب بسبب انتصاراته المعرفيّة والعسكريّة الواضحة في مجالاتٍ عديدة، والتي ترجمت نفسها إلى إحساسٍ متزايدٍ بالثقة بالنفس من جانب الإنسان الغربيّ، وإلى إيمانه بأنّ رؤيته للعالم هي أرقى ما وصل إليه الإنسان، وأنّ كلّ التاريخ البشريّ يصل إلى أعلى مراحلهِ في التاريخ الغربيّ الحديث، وأنّ العلوم الغربيّة علوم عالميّة، وأنّ النموذج الحضاريّ الغربيّ يصلح لكلّ زمانٍ ومكانٍ، أو على الأقلّ يصلح لكلّ زمانٍ ومكانٍ في العصر الحديث^٣.

وفي العالم العربيّ والإسلاميّ تجد الناس مولعين بتقليد النموذج الغربيّ، ومن ذلك ما يحكيه عبد الوهاب المسيريّ عن سؤاله لفتاة اريتريّة اعتادت أن تزور عائلته عن طبيعة الرجل الذي تودّ الزواج منه، فتغلّبت على حياثها وقالت: رجلٌ إيطاليّ! يقول المسيريّ: «فأعملت عقلي

١. رّحال، عمر، الاستعمار الثقافيّ: كأداة للرأسماليّة للهيمنة الأيديولوجيّة لتحويل قيمها المحليّة إلى معايير عالميّة، مقالٌ إلكتروني تمّ الاطلاع عليه في ١٨/٢٠٢٦، على الرابط التالي:

<https://www.wattan.net/ar/news/453274.html>.

٢. ابن خلدون، مقدّمة ابن خلدون، ج ١، ص ٢٨٣.

٣. المسيريّ، عبد الوهاب، العالم من منظورٍ غربيّ، كتاب الهلال العدد (٦٠٢)، ص ٨٧-٨٨.

إلى أن اكتشفت أن ابتنا الاريتريّة كانت تعيش في بلد غزتها إيطاليا، فولّد هذا في نفس الفتاة تحيزًا للغازي^١. وإذا ما تركنا هذا النموذج البسيط إلى نموذج أكثر عمقًا فإننا نجد أصحاب الفكر الليبراليّ العلمانيّ في بلادنا يرون أن السبيل إلى النهضة يتمثّل في نقل الفكر الغربيّ والنظريّات الغربيّة بأمانة شديدة، وتقبل النموذج الحضاريّ الغربيّ بكلّ مزاياه وعيوبه، بحلوه ومره، وبخيره وشره، وإعادة صياغة المجتمعات العربيّة والإسلاميّة وسلوك أفرادها حتى تتفق مع المعايير التي يفترضها هذا النموذج. وقد عبّر عن هذه النزعة ما يسمى (جيل النهضة) من الليبراليّين أمثال: أحمد لطفي السيّد، وشبلي شميل، وسلامة موسى، وقاسم أمين، وأنيس فريحة، وحسني العرابي، وعبد الله جول، وإسماعيل أدهم، وإبراهيم مصطفى، وحسن رفقي. وغيرهم ممّن تطول بهم القائمة، ومنهم من كان متطرّفًا مغترّبًا تمامًا عن ذاته، فدعا إلى التفاهات المسرحيّة مثل ارتداء القبعة، وكتابة العربيّة بحروفٍ لاتينيّة، ومنهم من كان أكثر تعقّلًا وابتعادًا عن مثل هذه الأشياء الشكليّة والصبيانيّة. ولكن أعضاء الفريقين، المتطرف منهم والمعتدل، الصبيانيّ منهم والناضج، كانوا في نهاية الأمر دعاة تغريبٍ وتحديثٍ على طريقة أوروبا^٢.

هذا فضلًا عن إحساس كثير من المسلمين باليأس من إصلاح الحال حين ينظر إلى واقع الخصوم، فيرى تفوّقهم في شتّى مجالات الحياة، وسيطرتهم على وسائل الإعلام، وقدرتهم على بثّ ما يريدون من أفكارٍ معاديّة، بل وتحكّمهم في شؤون كثير من أقطار العالم الإسلاميّ، وغير ذلك من مظاهر التقدّم والتفوّق والسيطرة، ثم يقارن هذا بواقع المسلمين الذي لا يحسدون عليه، فيصاب باليأس وفقدان الثقة في النفس، ويقول بلسان الحال أو المقال: بأن لا قبلَ لنا بهم، وبأنّه لا تجدي مواجهتهم، وبأن دحر أولئك الخصوم خيالٌ ووهْمٌ عريقان، حتى ليكاد اليأس أن يقضي عليه قبل أن يقضي عليه عدوه^٣. لكنّ هؤلاء الذين يملكهم هذا الشعور باليأس لا يعلمون أن هذا الشعور مقصود، وقد تمّ العمل عليه جيدًا من قبل القوى الكبرى.

وهذا الأمر قد دعا بعض المشتغلين بالفكر الإسلاميّ إلى ابتداع رؤيةٍ جديدةٍ لتناول الفكر الإسلاميّ من منظورٍ حدائقيّ يرمي إلى تقريب الشقّة بين تعاليم الإسلام، وبين ما جاءت به حضارة الغرب من أفكارٍ ونتائجٍ ونظريّاتٍ في ميادين الحياة. وكان عماد هذا العمل هو تفسير الإسلام

١. المصدر السابق، ص ١١.

٢. المصدر السابق، ص ٨٩.

٣. علي محمد، إسماعيل، الغزو الفكريّ: التحديّ والمواجهة، ص ٣٦١.

تفسيراً عصرياً، يلائم الفكر السائد، ويحاول إيجاد التقاء بين الخطّين على تباينهما، أو على الأقلّ تباعدهما. وقد ألجأ الهجوم الفكريّ هذه المدارس إلى مواقف دفاعيّة غريبة عن الإسلام؛ إذ جرّده من كثير من أحكامه الصريحة، وجاءت له بمعان جديدة بعيدة كلّ البعد عمّا تلقاه المسلمون عن النبيّ؟ ص؟، وذلك مثل: تعدّد الزوجات، والطلاق، والمواريث، والحدود، والربا، والتماثيل، حتى الجهاد في سبيل الله لم يسلم من التحوير، والإغراب، وغير ذلك كثيراً^١. رغم أنّ هذه الأمور كلّها قد بلغ فيها الإسلام الغاية العليا من الإحكام والسمو، ولكنّها عادت - في منطق العقول المهزومة، وفي رؤية المدارس المغلوبة أمام الضغط الفكريّ الغازي - مثالب أو نقاط ضعف في الإسلام تحتاج إلى دفاع، أو - في أوهامهم - كانت فضائل صالحة لزمانها، واحتاج التطوّر البشريّ إلى تعديلها.. إلخ^٢.

وذلك كلّ نتج بسبب تبني الشعوب المستعمرة قيم المستعمر بوعي أو بدون وعي، وهذا كما يقول عبد الوهاب المسيري: «يبين أنّنا تركنا تراثنا وتبيننا تراث الآخر الغربيّ بكفاءة عالية، وذلك دون فهم لمدلول ما نفعل ودون أن نقوم بعملية نقدية إبداعية لتراثنا ولتراثهم ولحضارتنا ولحضارتهم، لقد تبنيّا نموذجهم الحضاريّ الحديث والتهمنا منتجاتهم الحضارية التي وضعناها في بيتنا التي تتصارع معها، فكانت كالمُنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»^٣. ويمثّل هذا التبنّي لهذه القيم الغربية في وجهة نظري خطوة على طريق طويل يُقصد منه إعادة تشكيل الإسلام وفق قوالب غربيّة تُخرجه عن ماهيّته وتُفقده جوهرية.

رابعاً: آليات الاستعمار الثقافي في العالم الإسلامي

يمثّل ضرب الإسلام وتنحيته عن مظاهر الحياة الهدف الأول للاستعمار الجديد في هجمته الراهنة على العالم الإسلاميّ، وقد تمثّل سلاحه وآلياته في: الفكرة، والرأي، والحيلة، والنظريات، والشبهات، وخلاصة المنطق، وبراعة العرض، وشدة الجدل، ولدادة الخصومة، وتحريف الكلم عن مواضعه، وغير ذلك ممّا يقوم مقام السيف أو الصاروخ في أيدي الجنود^٤؛ من أجل تحقيق هدفهم المنشود، وسوف نعرض فيما يلي أهم الوسائل التي اتبعوها لتحقيق هذا الهدف.

١. فتح الله سعيد، عبد الستار، الغزو الفكريّ والتيارات المعادية للإسلام، ص ٩٨.

٢. المصدر السابق، ص ٩٩.

٣. المسيري، عبد الوهاب، العالم من منظور غربيّ، ص ٨٧.

٤. فتح الله سعيد، عبد الستار، الغزو الفكريّ والتيارات المعادية للإسلام، ص ٢١.

صناعة نخب موالية للثقافة الاستعماريّة:

حرص الاستعمار بنوعيه القديم والجديد على صناعة نُخبٍ من أبناء البلاد المستعمَرة تكون بمنزلة وكلاء له تتحدّث باسم الوطن، ويكون إخلاصها للمستعمر الذي حرص على أن تكون لهم كلمة مسموعة من خلال وضعهم في مناصب سياديّة مرموقة، أو تمكينهم من بعض مفاصل الدولة المهمّة؛ وبذلك يكون الاستعمار موجوداً رغم خروجه بآلياته العسكريّة، عن طريق الوكلاء الذي يؤدّون الدور المنوط بهم لصالح المستعمر الجديد. وتقوم هذه النخب بأدوارٍ سياسيّة واجتماعيّة وثقافيّة واقتصاديّة في البلاد الإسلاميّة تهدف إلى هدم روابط الأمة الإسلاميّة، وتستهدف وحدة الصفّ لأبناء هذه الأمة. إذ ترى أنّ تبني الأفكار الغربيّة هو سبيل التقدّم والنهضة، وأنّ من يرفضون هذه الأفكار ويتمسّكون بالأفكار التراثيّة ما هم إلّا دعاة جمودٍ ورجعيّةٍ وتخلّف. إذ تؤكّد هذه النخب على رفضها للتراث بمعناه الشامل، وترى في تراث الأمة أخطر معوقات النهضة التي لا سبيل إلى تحقيقها إلّا بمتابعة خطى الحضارة الغربيّة. فالتراث لديهم ليس إلّا مجرد تسجيل لأوضاع اجتماعيّة وثقافيّة وسياسيّة معيّنة ارتبطت بمرحلة تاريخيّة محدّدة، ومن ثم يرون أنّ محتوياته لا تلائم العصر، بل تشكّل عبئاً ثقيلاً تعرقل حركة الفكر والتطور^١. وتتمثّل هذه النخب في (نخب سياسيّة) تحاول أن تسير بالبلاد في فلك السياسات الخارجيّة للمستعمر. أو نخب من (المثقفين والإعلاميين) الذين يروجون للقيم والثقافات الغربيّة مثل الترويج للعلمانيّة بوصفها ضرورةً حضاريّة، وأنّ أيّ مجتمع لن ينهض أو يتقدّم إلّا بفصل الدين وعزله كليّاً عن مناحي الحياة كما فعلت أوروبا في عصر النهضة، رغم اختلاف التجربة والظروف وطبيعة الدين بين التجربتين الشرقيّة والغربيّة، ولكن هذه النخب تتغافل عن هذه الاختلافات لصالح الأجندات الغربيّة. أو (حركات اجتماعيّة) تبني أجندات غربيّة تدعو لأفكار بعيدة كلّ البعد عن الأخلاق والقيم الإسلاميّة مثل حقوق المثليين أو تبني أفكار النسويّة الراديكاليّة^٢. ولا شك في أنّ هذه النخب الموالية للثقافة الغربيّة تهدّد الهوية الإسلاميّة وتخلق شرخاً داخل المجتمعات، وتخدم مصالح الغرب على حساب المصالح الوطنيّة أو الدينيّة. فلا ينتقدون (المكننة) الغربيّة التي حوّلت الإنسان إلى مجرد آلة أو الطمع الرأسمالي الذي حوّل البشر إلى قطع غيارٍ في ماكينة الربح أو الإدمان الرقمي الذي جعلنا سجناء الشاشات.

١. نصّار، عصمت، فكرة التنوير بين لطفي السيّد وسلامة موسى، ص ٨٦-٨٧.

٢. تهدف النسويّة الراديكاليّة إلى تغيير هويّة المرأة، فتعمل على تحرير المرأة من الدين والعادات والتقاليد، وتدعو إلى السفور، وتهاجم مركزية الرجل، وتدعو إلى المثليّة الجنسيّة وأن تكتفي المرأة بالمرأة، وتشجع الإجهاض، والعلاقات الحرة خارج الزواج، وتعمل على تهاوي مفهوم الأسرة ... وغير ذلك من أفكار ضالة.

تهميش اللغات الوطنية:

تُعَدُّ اللغة من أهمِّ مكونات الهوية الوطنية للشعوب وهي بالتالي أهمُّ أهداف المستعمر للتأثير على الهوية الوطنية للشعب المستعمر، وهو في طريق تعبيد طريق سيطرته على هذا البلد أو ذاك؛ إذ إنَّ اللغة للمستعمر هي أدواته المثلى لفرض هويته والتأثير على هوية الشعوب المستعمرة؛ لذلك لم يكن غريباً أن يعمد عملاء الاستعمار الجديد ونخبه بكلِّ الطرق إلى التقليل من شأن لغة هذا المجتمع، وإضفاء العظمة والقوة والوجاهة على لغة المستعمر، والنظر إليها على أنَّها السبيل الأوحد للتقدّم والتطور، وذلك من خلال المناهج والإعلام والمؤسسات التي ينشئها فارقاً إياها كيفما استطاع.

ويتساوى في ذلك الاستعمار الجديد مع الاستعمار القديم؛ إذ قدّم المستعمر القديم لغته بوصفها مفتاح التطور والولوج إلى حياة الحداثة والتطور، مُستخدماً في ذلك كلَّ أسلحته من التعليم إلى الصحافة والمسرح وسوق العمل أيضاً. ومن خلال هذا كله حاول الاستعمار خلق الانطباع بالتفوق اللغوي والحياتي للمستعمر كي يغري الشعوب بالانصياع لمخططاته. وقد لعب الانجليز في مصر دوراً كبيراً في نشر اللغة الإنجليزية وجعلها اللغة الرسمية للبلاد، كذلك فعلت إيطاليا في ليبيا وفرنسا في تونس والجزائر. ولمّا واجهت المستعمر القديم معضلات في تغيير اللغة الوطنية في بعض البلاد العربية كمصر على سبيل المثال، لجأ إلى التخطيط البعيد لهدم اللغة، فدعا أولاً إلى استبدال العامية بالفصحى، وذلك عن طريق العديد من الصحف ونشر عشرات الكتب التي تروّج للهجة العامية المصرية، لطمس الهوية العربية وتمزيق وحدتها الفكرية عن طريق محاربة اللغة الفصحى التي تجمع بين الأقطار العربية^١.

وقد زعم عملاء الاستعمار من أبناء الأمة العربية على أنَّ اللغة العربية الفصحى عاجزة عن مواكبة الحضارة الأوروبية الحديثة، واستيعاب علومها، والتعبير عن أفكارها، بالدقة والوضوح اللذين تمتاز بهما اللغات الأجنبية. كما ادّعوا أنَّ جمود ألفاظ الفصحى، وصعوبة أساليبها، من أسباب تخلف العرب ورجعيتهم من جهة، وانصراف النابهين من الدارسين عنها وعن قواعد العقيمة إلى اللغات الأجنبية من جهة أخرى. ومن ثمَّ ينتهوا إلى جعل اللغتين الإنجليزية والفرنسية، بل وغيرهما من سائر اللغات الأوروبية أولى لغات العالم بالعلم والتعليم^٢.

١. نصار، عصمت، فكرة التنوير بين لطفي السيد وسلامة موسى، ص ١٣٨.

٢. المصدر السابق، ص ١٥٩.

تراجع القيم الأصيلة أمام قيم استهلاكية وافدة:

تُعَدُّ الثقافة الاستهلاكية أحد أبرز الثقافات التي يحرص المستعمر الجديد على غرسها في ثقافة الشعوب المستعمرة؛ حيث يتحوّل الاستهلاك من عملية اقتصادية بحثية إلى عملية اجتماعية تُستخدم فيها السلع كرموز لتعريف الهوية والمكانة الاجتماعية. وتُعرّف الثقافة الاستهلاكية بأنها نظام اجتماعي واقتصادي يشجع الأفراد على شراء واستهلاك المنتجات والخدمات بشكل مستمر كوسيلة لتحقيق الرضا الذاتي والشعور بالسعادة. فهي تُخطط وتُقدّم بذكاء تقني، وبفكر عملي وعقلية إنتاجية ربحية، وبأساليب متنوعة. تخلق عند المستهلك التعطش لاقتناء كل ما هو معروض من سلع، وتنمي لديه حبّ التملك، وتقدم له نوعاً من الإحساس بالتميز والتفوق بما يعزّز مكانته الاجتماعية من الواجهة وحبّ الظهور والتفاخر، فتدفعه إلى الشراء المفرط بما يتجاوز حاجاته^١.

ومع تطوّر النظام الرأسمالي، أصبحت المنتجات والخدمات أكثر من مجرد حاجة مادية، حيث تم تطبيع فكرة أنّ استهلاك المزيد من السلع يحقق الرضا الشخصي والنجاح الاجتماعي. ومن ثم يتم استخدام هذه الثقافة كما يقول الفيلسوف الألماني «هربرت ماركوزة» في كتابه (الإنسان ذو البعد الواحد) كأداة للهيمنة على الأفراد وتقييد حريّاتهم، وفي هذه النزعة يتم تغيير القيم الإنسانية الحقيقية التي كانت تعبّر عن كينونة الإنسان بقيم مادية سطحية^٢.

فالإنسان في الثقافة الاستهلاكية لا يستهلك ما يحتاج إليه بالفعل؛ بل يستهلك ما يتناسب مع مكانته الاجتماعية، وتصبح كلّ قيمة في حياتنا تقاس بالمقابل المادي أو بقيمتها المادية، وقيس الأفراد قيمتهم الذاتية بما يمتلكونه من سلع وليس بما ينجزونه من أعمال. ممّا يعزّز من الفردية المفرطة ويقوّض الروابط الاجتماعية التي تقوم على التعاون والتضامن. وهنا يتم إهمال الجوانب الروحية والإنسانية لصالح إشباع رغبات مادية مؤقتة، ويفقد الإنسان توازنه الروحي والعاطفي في محاولات لا نهائية لإشباع رغبات مادية لا تنتهي. ويتمّ النظر إلى الإنسان على أنّه مجرد «مستهلك» بدلاً من أن يكون شخصاً يحقق ذاته من خلال العلاقات والقيم الحقيقية. كما تجعل الثقافة الاستهلاكية الإنسان يعيش في قلق دائم بسبب عدم الاستقرار في الحياة المادية، وتضيّق مساحة

١. شمس، محمد، مجتمعنا الإسلامي ونمط الحياة الغربي، مقالٌ إلكتروني تمّ الاطلاع عليه في ٢٠٢٥/١/١٢ على الرابط الإلكتروني التالي:

<https://almaarefcs.org/4653/339>

٢. الثقافة الاستهلاكية وتدمير الذات.. قراءة فلسفية في أثر الرأسمالية على القيم الإنسانية، مقالٌ إلكتروني تمّ الاطلاع عليه في ٢٠٢٦/١/١٢، على الرابط الإلكتروني التالي: <https://surl.li/tnokcl>

الحرّيات الحقيقيّة لتتلخّص في حرّية الإعلانات والإعلام^١. ومن ثمّ تصبح الثقافة الاستهلاكيّة إحدى آليات الاستعمار للسيطرة على الشعوب المستعمرة حين يُفقد هويّتها، ويدمر الذات الفرديّة، ويفكّك الروابط الاجتماعيّة لصالح قيمٍ ماديّةٍ مؤقتة.

فرض نمط حياةٍ غربيٍّ يعيد تشكيل الوعي الجمعيّ:

نمط العيش أو نمط الحياة هو التجلّي والتمظهر الفعليّ السلوكيّ والقيميّ لمنظومة اجتماعيّة وثقافيّة ولتجربة حضاريّة راهنة تفرض نفسها من خلال قوّة نموذجها^٢. يحاول الاستعمار الجديد فرض نمط حياةٍ غربيٍّ على المجتمعات المستعمرة غايته طمس الهوية الحقيقيّة وإعادة تشكيل وعي جمعيّ جديد. فينتقل بها من مجتمعات تحافظ على القيم الروحيّة والدينيّة إلى مجتمعات تركّز على إشباع الملذّات الحسيّة. هذا إلى جانب الموضة والموسيقى، إذ إنّ صناعة الأزياء والموسيقى تُستخدم لنشر نمط حياةٍ غربيٍّ جذاب، يتمّ تصويره كرمز للحداثة. وتُسهّم هذه الصناعات في خلق هويةٍ عالميّة تتوافق مع القيم الغربيّة؛ ممّا يؤديّ إلى تآكل الهويّات الثقافيّة المحليّة^٣.

وتشهد مجتمعاتنا الإسلاميّة والعربيّة اليوم بمختلف فئاتها، وخاصّة الشباب والمراهقين تقليدًا أعمى وانبهارًا بكلّ ما هو أمريكيّ وغربيّ، في أزياء الملابس وقصّات الشعر، وفي المأكّل والمشرب (الأكلات السريعة والجاهزة)، وطريقة الكلام، واللغة، والكتابة، والترفيه، وزيارات المولات، والهوس بعمليات التجميل، والوشم، وتناول المنشطات والمنبهات والتدخين والمباهاة بالمظاهر المترفة كالتليفون والسيارة وغيرها ناهيك عن دخول تكنولوجيا الانترنت التي أثّرت بشكلٍ لافتٍ في العلاقة بين الجنسين، فبتنا نشهد نمطًا جديدًا في العلاقات بين المرأة والرجل إضافةً إلى حالات كثيرةٍ من الطلاق سببتها وسائل التواصل الاجتماعيّ. بل أصبح الطلاق سهلاً ومستسهلاً عند الزوجين لأسبابٍ يمكن معالجتها وإصلاحها. وبدأنا ننتهج مسلكًا استهلاكيًا استعراضيًا، وأضحت المظاهر رمزًا لمكانة الشخص، فكلّما زاد في استهلاكه التفاخري زاد مكانته الاجتماعيّة^٤.

١. المصدر السابق.

٢. شمس، محمد، مجتمعنا الإسلاميّ ونمط الحياة الغربيّ، مقالٌ إلكترونيّ تمّ الاطّلاع عليه في ٢٠٢٥/١/١٢ على الرابط الإلكتروني التالي:

<https://almaarefcs.org/4653/339>

٣. رخال، عمر، الاستعمار الثقافيّ: كأداة للرأسماليّة للهيمنة الأيديولوجيّة لتحويل قيمها المحليّة إلى معايير عالميّة، مقالٌ إلكترونيّ تمّ الاطّلاع عليه في ٢٠٢٦/١/٨، على الرابط التالي:

<https://www.wattan.net/ar/news/453274.html>

٤. شمس، محمد، مجتمعنا الإسلاميّ ونمط الحياة الغربيّ، مقالٌ إلكترونيّ تمّ الاطّلاع عليه في ٢٠٢٥/١/١٢ على الرابط

وهكذا يُخطط الاستعمار الجديد للهيمنة من جديد عبر استيلاء الثقافة الغربية على تصوّراتنا وتفسيراتنا للحياة. وإن ما نعيشه اليوم هو موتٌ بطيءٌ للهوية والذاكرة، وبنحوٍ تدريجيٍّ يتآكل معه الجهاز المناعيُّ لثقافة المجتمع وينعكس مباشرةً على مواقفنا وسلوكياتنا، ويُنذر بأخطارٍ وخيمةٍ على الأمن الاجتماعي^١.

الجامعات الغربية في البلدان العربية والإسلامية ونشر الثقافة الغربية:

يُستخدم الاستعمار الجديد الجامعات في نشر ثقافته عبر الطلاب المبعوثين إلى الجامعات الغربية أو الجامعات الغربية الموجودة في العالم العربي والإسلامي من قبيل الجامعات الأمريكية والبريطانية والألمانية والفرنسية وغيرها التي باتت تملأ البلاد العربية والإسلامية. فالجامعات ونمط التعليم الغربي يُعدان من أهم الأدوات الرئيسة التي تُستخدم لنشر الهيمنة الأيديولوجية الغربية، إذ يقول المستشرق الإنجليزي «ه. أ. ر. جب»: «إنّ التعليم هي أكبر العوامل الصحيحة التي تعمل على الاستغراب، وإن انتشار التعليم (أي: على الطريقة الغربية) سيعتد بازدياد في الظروف الحاضرة على توسيع تيار الاستغراب وتعميقه، ولا سيّما لاقتترانه بالعوامل التعليمية الأخرى التي تدفع الشعوب الإسلامية في نفس الطريق»^٢. حيث تُقدم الجامعات الغربية كمعيارٍ للتعليم العالي، وتحتلّ أعلى التصنيفات بين الجامعات الموجودة في كافة بلدان العالم؛ ممّا يجعل الطلاب من جميع أنحاء العالم يتبنّون رؤى وقيم هذه المؤسسات. هذا إلى جانب المناهج الدراسية، حيث يتم تصميم المناهج التعليمية في العديد من الدول النامية وفقاً للنماذج الغربية، ممّا يؤدي إلى تعزيز القيم الغربية على حساب القيم المحلية. أمّا البعثات الدراسية فتُستخدم كوسيلةٍ لتشكيل النخب المحلية وفقاً للأيديولوجية الغربية.

حيث يعود الطلبة الذين يدرسون في الغرب إلى أوطانهم وهم يحملون رؤيةً عالميةً تتماشى مع المصالح الغربية، وليس أقلّها الفن والأدب حيث يتمّ تقديم رواياتٍ مثل أعمال شكسبير، تولستوي، وأدب عصر النهضة كأعمالٍ عالمية، بينما تُهمل الأعمال الأدبية من الثقافات الأخرى. كوسائل للنفوذ الثقافي الغربي، والذي يقدم على أنّه عملٌ عالميٌّ ذي قيمةٍ عليا، ممّا يؤدي إلى

الإلكتروني التالي:

<https://almaarefcs.org/4653/339>

١. المصدر السابق.

٢. نقلاً عن: علي محمد، إسماعيل، الغزو الفكري: التّحدي والمواجهة، ص ١٠٩.

تتمش الفنون والآداب المحليّة. كما تُستخدم السينما كأداةٍ لنشر القيم الغربيّة؛ حيث تُظهر الأفلام الولايات المتّحدة والدول الأوروبيّة كقوىٍ خيرةٍ تدافع عن حقوق الإنسان، بينما تُصوّر الدول الأخرى غالباً كديكتاتورياتٍ أو مجتمعاتٍ فوضويّة^١.

ويعمل التعليم الجامعيّ أو ما قبل الجامعيّ الذي أنشأه الاستعمار في الأقطار الإسلاميّة وفق خطةٍ متشابهةٍ، ترمي إلى تحقيق أهدافٍ خطيرةٍ، وهي:

أولاً: عزل هذا القطر عن أمّته العربيّة، ثم عزله عن العالم الإسلاميّ كلّهُ.

ثانياً: الادّعاء بأنّ العصر الحديث بدأ بحملة نابليون بونابرت على الشرق، وأنّ ما قبل ذلك هو (عصور الانحطاط)؛ ممّا يعمل على إيجاد شعورٍ نفسيّ بكَراهيّة التراث والانسلاخ من الماضي كلّهُ.

ثالثاً: بعد عزل القطر إقليميّاً عن أمّته العربيّة والإسلاميّة، يتمّ إحياء نغراتٍ ماضويّةٍ (الفرعونيّ- الفينيقيّ- الآشوريّ...) تمهيداً لربطه بحضارة الغرب التي لا تُقهر، وقد سبقت محاولاتٍ فعليّةٍ نادت بها شخصياتٌ وطنيّةٌ ثقافيّةٌ مرموقةٌ بضمّ مصر إلى الحضارة الغربيّة، وكان من أشهر المنادين بذلك طه حسين في كتابه الأشهر (مستقبل الثقافة في مصر).

رابعاً: الاهتمام باللّهجات الإقليميّة وما يتّصل بها من حكاياتٍ وفولكلور، وأزجالٍ وموالٍ وغيره؛ إغراقاً في العمق الإقليميّ، وحيلولةً دون الامتداد الطبيعيّ للأمة.

خامساً: إعلاء اللغة الأجنبيّة (الإنجليزيّة أو الفرنسيّة) على اللغة العربيّة، والدعوة إلى تعلّمها بحجّة أنّها لغة الحضارة، ثم السيطرة عن طريقها فكريّاً على المثقّفين الذين يوجّهون بعد ذلك إلى الاعتماد على فلسفاتهم ومفاهيم الغرب^٢.

هذه كانت خطة التعليم العامّة مع تغييراتٍ طفيفةٍ يختلف بها منهج الهيمنة من قطرٍ إلى آخر، لكنّ الهدف في الجملة واحد، وهو ازدياد الوطن، والقوم، والفكر العربيّ الإسلاميّ كلّهُ، والالتفات نحو الغرب صاحب الحضارة المستعمرة وبطولاته وأمجادهِ!

١. رّخال، عمر، الاستعمار الثقافيّ: كأداة للرأسمالية للهيمنة الأيديولوجيّة لتحويل قيمها المحليّة إلى معايير عالميّة، مقالٌ الكترونيّ تمّ الاطّلاع عليه في ١٨/٢٠٢٦، على الرابط التالي:

<https://www.wattan.net/ar/news/453274.html>

٢. علي محمد، إسماعيل، الغزو الفكريّ: التحدي والمواجهة، ص ١١٤.

خامساً: آليات مقاومة الهيمنة الثقافية

مما تقدّم يجب علينا أن نتخذ خطواتٍ مهمّةٍ لمنع الهيمنة الثقافية وتفكيك الخطاب الاستعماريّ الذي رسّخ صورة تفوّق الغرب ودونيّة الشعوب المستعمرة، من أجل إعادة الثقة للذات العربيّة والإسلاميّة والتأكيد على قدرتها على الإبداع والابتكار والتفوق وسيادة العالم وقيادته إلى ما فيه الخير والفلاح بعيداً عن هذه الحضارة الغربيّة التي سبّبت شقاء الإنسان في دنياء، وأفسدت عليه آخرته؛ ومن أهمّ هذه الخطوات الضروريّة التي يجب علينا اتّباعها الآن ما يلي:

الوعي النقديّ ورفض تمجيد الذات:

الوعي النقديّ ورفض تمجيد الذات هما عمليّتان متكاملتان: الوعي النقديّ هو القدرة على التفكير بعمق وتقييم الذات والمواقف بعقلانيّة (بما في ذلك الأفكار والمشاعر)، وهو أساس رفض التمجيد الذاتيّ المفرط؛ لأنّ التمجيد الذاتيّ يعوق هذا النقد، ويغذّي الغرور والجمود الفكريّ، أمّا النقد البناء يقود إلى التعاطف مع الذات، وتصحيح الأخطاء، والنمو، وتقدير الذات الحقيقيّ المبني على الواقع بدلاً من الأوهام. ومن ثمّ نتمكّن من وضع أساسات قويّة نطلق منها لتحقيق تحرّر فكريّ وثقافيّ وسياسيّ من أجل بناء الذات والهويّة المستقلّة بعد قرونٍ من الاستعمار والسيطرة الغربيّة.

إنتاج ثقافةٍ مستقلّةٍ تستند إلى صحيح الدين وقيم المجتمع وعاداته وتقاليده:

إنّ إنتاج ثقافةٍ مستقلّةٍ تستند إلى قيم المجتمع يعني تطوير مجموعةٍ فريدةٍ من المعتقدات والممارسات والأفكار التي تعكس الهويّة الأصليّة للمجتمعات العربيّة والإسلاميّة، التي تنتج من فتح باب الاجتهاد والتفكير في كافة المجالات بدلاً من التلقّي السلبيّ والخنوع المخجل^١. وبذلك نستطيع الوقوف في وجه الأنظمة الثقافيّة الأخرى التي غزت العالم الإسلاميّ من ليبراليّة ديمقراطيّة، ومن اشتراكيّة ماركسيّة شرقيّة^٢.

والثقافة الإسلاميّة الأصليّة من أكثر الثقافات في العالم غنىً وثراءً بالقيم الأصليّة التي تجمع بين المادّي والروحي في تكاملٍ وتوازنٍ بنحوٍ لا يطغى جانبٌ على آخر؛ ومن ثمّ، تكون لدينا قيمنا وثقافتنا الأصليّة التي تعبّر عنا، وتعكس واقع احتياجات المجتمع بدلاً من استيرادها من الخارج، مع التأكيد على الحفاظ على التوازن بين التقاليد والقيم الأساسيّة وبين التطوّر والتفاعل

١. المسيريّ، عبد الوهاب، العالم من منظورٍ غربيّ، ص ٢٨٧.

٢. علي محمد، إسماعيل، الغزو الفكريّ: التحديّ والمواجهة، ص ٣١٩.

مع العصر، وهو أمر حيويٌّ للحفاظ على الهوية وتعزيز التمكين الذاتي. ويُعد ذلك تحديًا في عصر العولمة الذي يفرض هيمنة ثقافية عالمية، ويتطلب تعزيز التفكير النقدي وتطوير الصناعات الثقافية المحلية.

الارتقاء بالتعليم الوطني الذي يعزز قيم الاعتزاز بالذات:

إن الارتقاء بالتعليم الوطني وتعزيز الاعتزاز بالذات من أهم الآليات التي تمكنا من المقاومة الثقافية؛ إذ يجب تبني فلسفة تربوية إسلامية من المربين المسلمين ووزارات التربية والتعليم في البلاد العربية يصدر عنهما في تطبيقاتهم العملية في المؤسسات التربوية في جميع المراحل التعليمية، وتنشق منها أهداف مرحلية وفرعية للتربية والتعليم الرسمي وغير الرسمي، المدرسي والجامعي، وتبنى عليها عملية تطوير شاملة للمناهج التعليمية منبثقة من تراثنا الإسلامي ومسايرة لتطور العصر ومنهجه العلمي^١.

بالإضافة إلى دمج الهوية الوطنية والتاريخ والتراث في المناهج، وتفعيل الأنشطة اللاصفية كاحتفال بالمناسبات الوطنية والدينية والعمل التطوعي، وأن يحظى الاحتفال بالمناسبات الدينية اهتمامًا ملحوظًا ليطبع في نفوس الطلاب الإجلال لهذه المناسبة. وتدريب المعلمين على غرس القيم الأخلاقية الإسلامية النبيلة، وتشجيع الحوار والتعايش، ليصبح الطالب مواطنًا فاعلاً يدرك ذاته ويسهم في بناء وطنه، مع تكاتف دور الأسرة والمدرسة والمؤسسات المجتمعية لتحقيق ذلك.

تشجيع الآداب والفنون الجميلة التي تعبر عن أصالة الذات:

إن تشجيع الآداب والفنون الجميلة التي تعبر عن أصالة الذات يكمن في دعم التعبير الفردي العميق، والذي يبرز الهوية الثقافية والشخصية للمبدع من خلال مزج التجربة الذاتية بالواقع، مما يُعني المجتمع ويقدم رؤية فريدة، وهذا يتطلب توفير بيئات تعليمية وإبداعية محفزة، والتركيز على أصالة العمل وليس مجرد التقليد. وإزالة الفهم الغريب العالق بأذهان الكثيرين والذي يرى أن الإسلام يحرم الفن، والحق أن الإسلام لا يحرم إلا ما هو رديء وفاسد، فكل فن لا يخالف الإسلام في شيء من معتقده وتصورات وأحكامه، يدخل في إطار الفن الإسلامي؛ «الفيلم السينمائي، أو التمثيلية التلفزيونية، أو البرنامج الإذاعي، أو المقال الصحفي... أو غيرها من وسائل الإعلام إذا قدمت مادة إعلامية مفيدة لا تخالف الإسلام في شيء فهي مادة تصب في الفن أو الإعلام الإسلامي»^٢.

١. المصدر السابق، ص ٣١٨-٣١٩.

٢. علي محمد، إسماعيل، الغزو الفكري: التحدي والمواجهة، ص ٣٢٧.

وبناءً على ذلك يجب «التخطيط لإنتاج فنيٍّ أدبيٍّ متكامل، يشترك فيه المفكرون والعلماء والأدباء والشعراء وكلٌّ من له إسهامٌ في الجانب الفني، وذلك لتغذية أجهزة الإعلام والتوجيه - من إذاعة وتلفزيون ومسرح وصحافة ... وغيرها- بالأصيل والجاد من القصص، والمسرحيات والتمثيلات وغيرها من البرامج المتنوعة، وبخاصة تلك التي تتعلق بالإسلام ودعوته، وكتابه ونبئه وتاريخه ورجاله، وحضارته، لإعطاء صورة صحيحة ومشرفة عن الرسالة الإسلامية، والبطولة الإسلامية، والحضارة الإسلامية، والروح الإسلامية، بحيث يلتقي في رسم هذه الصورة الصدق التاريخي والجمال الفني»^١.

ومن ثم يصبح من الضروري استخدام الفنون كوسيلة للتواصل وتجسيد القيم الإسلامية النبيلة. والفن الإسلامي في أشكاله كافة فنٌ جميل، كما انعكس في فنون العمارة الإسلامية الأصيل. وهو فنٌ يخدم الحياة ويحترمها ويحترم القواعد الأخلاقية فلا مساحة فيه لتمثيل عارية، وأفلام هابطة، وموسيقى صاخبة تضر السامعين.

سادساً: دور الثقافة في تحقيق الحياة الطيبة والتخلص من الإرث الاستعماري

إن ثمة علاقةً وطيدة وعميقة بين الثقافة والحياة الطيبة؛ إذ إن الثقافة تسهم بشكل مباشر في تشكيل وعي الإنسان وسلوكه وقيمه، وهي بذلك تساعد على تحقيق حياة متوازنة ومرضية على المستويين الفردي والاجتماعي؛ فالثقافة تزود الإنسان بالمعارف والأفكار التي تساعد على فهم نفسه وفهم العالم من حوله، أي: إنه يمكننا القول إنه كلما اتسعت ثقافة الإنسان أصبح أكثر قدرة على فهم ما يحيط به، وأكثر قدرة على التمييز بين الصواب والخطأ، واتخاذ قرارات واعية تقوده إلى حياة مستقرة وسليمة. كذلك تسهم الثقافة في ترسيخ القيم الأخلاقية والمثل العليا داخل الفرد، فتحسن علاقته بالآخرين وتسهم في بناء مجتمع متماسك يسوده الاحترام المتبادل. كذلك تعمل الثقافة على تحقيق الرضا النفسي وتجعل الإنسان أكثر قدرة على مواجهة ضغوط الحياة والتكيف مع تحدياتها. فالثقافة ليست مجرد معلومات ومعارف، بل هي أسلوب حياة يسهم في بناء الإنسان فكرياً وأخلاقياً ونفسياً، ومن ثم فهي عنصرٌ أساسي لتحقيق الحياة الطيبة التي يسعى ويطمح إليها الإنسان.

وما دامت الثقافة أداة وعي وبناء حضاري - كما بنا أعلاه - يمكن توظيفها لتحقيق الحياة الطيبة والإسهام في إصلاح آثار الاستعمار الذي ترك آثاراً فكرية واجتماعية واقتصادية ممتدة في كافة ربوع أوطاننا العربية والإسلامية، فلاستعمار - كما سبق أن بينّا - لم يكن احتلالاً للأرض فقط، بل

١. القرزاوي، يوسف، الحل الإسلامي فريضة وضرورة، ص ٤٧-٤٨.

حاول التأثير في الهوية واللغة وأنماط التفكير. ومن أهم الوسائل التي تعمل على تحقيق الحياة الطيبة ومحو الإرث الاستعماريّ البغيض ما يأتي:

تعزيز الهوية والانتماء للثقافة الإسلامية: لا يمكن لإنسان أن تستقرّ روحه وتهدأ نفسه وهو يشعر أنّه منزوع الجذور، بلا أصل ولا هوية. وقد عمل الاستعمار - كما سبق أن بيّنا - على اقتلاع الإنسان في البلاد المستعمرة من جذوره، وحاول بكلّ السبل طمس هويّته، وإحاقه بهوية أخرى لا علاقة له بها حتى يسلس اقتياده وتتم السيطرة الكاملة عليه. وإذا تحقّق ذلك شعر الإنسان بالضيق والتعاسة، واضطربت حياته ونغص عيشه. وهنا تأتي أهمية الثقافة الإسلامية الأصيلة ودورها الفعّال في مساعدة الإنسان المسلم على العودة إلى جذوره وتاريخه العريق، والتمسك بقيم مجتمعه الدينية الإسلامية الأصيلة، ممّا يمنحه شعوراً بالاستقرار النفسي والانتماء، وهما من أهم عناصر الحياة الطيبة.

إحياء التراث الإسلامي واللغة العربية: الاهتمام باللغة العربية والتراث الإسلامي يعيد الثقة بالذات الإسلامية الحضارية، ويحافظ على الخصوصية الثقافية للمجتمع الإسلامي؛ لذلك كانت اللغة العربية والثقافة الإسلامية هدفاً مباشراً للاستعمار وأعوانه على مرّ العصور، ويكفي هنا أن نشير إلى محاولات أحد هؤلاء الأعوان في مصر، وهو سلامة موسى، الذي رأى أنّ اللغة الفصحى لغة جامدة، وأنّ مصيرها إلى الموت، وأنّها تعمل على تفكيك وحدتنا القومية المصرية، وتجعل منا أتباعاً لثقافة مريضة، وهي الثقافة العربية الشرقية^١. الأمر الذي لا يدع معه مجالاً للشك في أنّ التراث الإسلامي كان هدفاً مباشراً للاستعمار؛ إذ حرص النفوذ الاستعماريّ على تجميد المعاهد الإسلامية الكبرى التي تحفظ التراث الإسلامي في: الأزهر في مصر، والزيتونة في تونس، والقرويين في المغرب، والنجف في العراق. وأطلق العنان لمدارسه ومعاهده التي جعلها السبيل إلى النفوذ والمناصب المرموقة والثروة.

ومن ثم يجب على المثقفين العرب والمسلمين إعادة إنتاج ثقافة مستقلة تواكب العصر وتستند إلى التراث الإسلاميّ الأصيل المتمثّل في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وخطابات آل البيت الكرام (عليهم السلام) مع الانفتاح على التحدّيات المعاصرة. ومن فضل الله على الأمم الإسلامية أنّه مهما اختلفت لغات العالم الإسلاميّ (العربية- الفارسية - الأوردية- وغيرها من

١. موسى، سلامة، اللغة الفصحى واللغة العامية ورأي السير ويلكوكس، مجلة الهلال، ع ١٠، ص ١٠٧٢-١٠٧٧.

اللغات الأخرى) ما زالت تحتفظ بأساسٍ موحدٍ هو الإسلام، وإطارٍ موحدٍ هو القرآن^١. ومن فضل الله أيضاً أنه ما زال التراث الإسلامي يتوحد حوله الجميع، وإن اختلفوا قليلاً حول ما جاء فيه. فما يربط المسلمين هو الإسلام بتراثه الروحي العميق، وبوصف لغته العربية، لغة القرآن، والثقافة الإسلامية^٢. ومن ثم يكون من أهم خصوصيات الثقافة هو إعادة إحياء التراث والتمسك باللغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم من أجل تثبيت دعائم الهوية من أجل بناء حياة طيبة يشعر فيها الإنسان بهويته ويعتزّ فيها بأصله وجذوره.

إعادة كتابة التاريخ برؤية موضوعية: عمل الاستعمار عن طريق أعوانه من المستشرقين وعملاء الداخل على تزيف حقائق التاريخ الإسلامي؛ فخلطوا بين السلطة الإكليريكية وسلطة الفقهاء، وزعموا - زوراً وبهتاناً - أن الإسلام كبحّ للعلم والعقل مثلما فعلت المسيحية؛ وكذلك اختزلهم للإسلام في شرنقة المواجهة مع الغرب، وقراءة حركته بوصفها مجرد «انعكاس شاحب ومعكوس لتاريخ الغرب»، وأيضاً محاكمتهم لتجربة الإسلام انطلاقاً من التجربة المسيحية، ومنح أنفسهم الحق في الحكم عليه، وأخيراً إصرارهم على النيل من أصالة الفكر الإسلامي. كما عمل أعوان الاستعمار وأبواقه على تصوير التاريخ الإسلامي تصويراً بعيداً عن الموضوعية، فقلّما نجد مستشرقاً يركّز على النقاط المضيئة من تاريخنا الذي أضاء الأرض كلّها وقت عصور الغرب المظلمة، ولولاه ما استطاع الغرب أن يبنى حضارته الراهنة.

لذلك تساعدنا الثقافة على الاهتمام بإعادة قراءة التاريخ بطريقة موضوعية في ظلّ العصر الذي وقعت فيه الأحداث لا في ظلّ عصرنا نحن. وهذه مهمة ثقيلة يجب أن ينتبه إليها مؤرخونا وألا ينساقوا وراء القراءات الاستشراقية المغرضة التي لا تنصت إلا لأهوائها وأغراضها الإيديولوجية المقيتة. ومن ثم فإنّ إعادة كتابة التاريخ من منظور وطني وإنساني يساعد على كشف تشوهات السرديات الاستعمارية وتصحيحها. ممّا يعمل بالتأكيد على ترسيخ أسس الحياة الطيبة.

بناء وعي نقدي تجاه الثقافة الوافدة: ليس المقصود رفض الثقافات الأخرى أو التفوق والانغلاق حول الذات، بل التفاعل معه الثقافات الوافدة بوعي، وانتقاء واختيار ما يناسب قيم المجتمع ويخدم تقدّمه. وأن يستهدف هذا الوعي النقدي الكشف عن قدره الإسلام على الالتقاء بالفكر الإنساني والحضارة الحديثة، وبيان مدى قيم الإسلام الأساسية في منح الإنسانية زاداً جديداً، وحلولاً مرنة،

١. الجندي، أنور، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، ص ٣٤٧.

٢. حنفي، حسن، الهوية، ص ٧١.

سمحةً لمختلف معضلات المجتمع الحديث على نحوٍ يفوق الإيديولوجيات الغربية، وإقناع أهل الإسلام بصلاحيته لهم صلاحية تناسب أمزجتهم وعقليّاتهم وأرواحهم على نحوٍ يفوق التطلّع إلى اقتباس مناهج المجتمع والحياة من الغرب، وفضلاً عن ذلك فهو مفتوحٌ الآفاق لتقبل العلوم وعوامل الرقي المستخدمة، وتقبل كلّ فكرٍ إيجابيّ صالح لترقية المجتمعات ودفعها إلى الأمام^١.

تعزيز التعليم والثقافة المجتمعية: إنّ نشر التعليم والمعرفة يسهم في تحرير العقول من التبعية الفكرية، ويُعزّز الاستقلال الحضاريّ؛ وقد عدّ الاستعمار التعليم والثقافة قضيتيه المحوريّة وجعلها كبرى معاركه؛ فقد عمل من خلال مدارس ومعاهده وجامعاته أن ينشئ أجيالاً «تحمل ثقافة المستعمر وتاريخه، ولغته، ودينه على نحوٍ واسع الإغراء للشباب المسلم، مبتعدةً به عن تاريخه ولغته ودينه بالهجوم والتشكيك، وإثارة الشبهات، والربط بينه وبين تاريخ المستعمر ودينه ولغته ومكانه من الحضارة، والربط بين تاريخ الأمم الإسلامية ودينها وبين وقوعها تحت نفوذ الاستعمار وتخلّفها»^٢.

كما حرص على أن تؤسّس مناهج التعليم في البلاد المستعمرة لعزلة إقليمية بين الدول والشعوب، خاصّة تلك الشعوب التي تجمعها لغة واحدة، أو جغرافيا مشتركة، أو عرق واحد، أو دين واحد... إلى آخر هذه الأسباب التي تعزّز إمكانية توحيدها واتّحادها. ففي التعليم الاستعماريّ لا يدرس الطالب سوى إقليمه فقط دون معرفة أيّ شيءٍ عن الأقاليم الأخرى حتى يقضي تماماً على بذور أيّ فكرةٍ من الممكن أن تدعو إلى التوحيد أو التكامل الاقتصاديّ في المستقبل.

كما أنّ التعليم الأجنبيّ في الأقطار الإسلامية يعمد إلى تخريج أجيالٍ متشبّعة بالثقافة الغربية كارهة للثقافة الشرقية الإسلامية، تنظر بعين الاحتقار والازدراء لكلّ ما ينتمي إلى التراث الإسلاميّ، وهذا من أهمّ منغصات العيش في بلادنا؛ ولذلك يجب أن نعزّز من ثقافة الاتحاد والوحدة والتكامل، والاهتمام بالمشترك أكثر من المختلف عليه، وأن تُستمد الأصول والمبادئ لفلسفة التربية والتعليم في العالم الإسلاميّ من مناهج التربية الإسلامية القائمة على الربط بين الأخلاق والسياسة، وبين الدين والمجتمع، حتى يتسنى لنا الاعتماد على الذات وتكوين قوة إسلاميةٍ مرهوبة الجانب تطيب بها الحياة، ولا يكون ذلك إلّا بوحدة سياسيةٍ واقتصاديةٍ وثقافيةٍ يمكن التأسيس لها انطلاقاً من وحدة الدين واللغة والعرق والمناخ الجغرافية.

١. الجندي، أنور، العالم الإسلاميّ والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، ص ٣٥٠.

٢. المصدر السابق، ص ٣٣٨.

وهكذا يمكن للثقافة أن تكون وسيلة لبناء إنسان واعٍ معترِّ بهويته، قادر على التفاعل مع العالم دون فقدان خصوصيته، وبذلك تسهم في تحقيق الحياة الطيبة وإصلاح الآثار الفكرية والاجتماعية التي خلفها الاستعمار.

الخاتمة

وهكذا توصل هذا البحث حول «الاستعمار الجديد وتحول الثقافة كأداة للهيمنة» إلى مجموعة من النتائج المهمة، كان أبرزها ما يأتي:

أولاً: إنّ الاستعمار الجديد يعتمد على القوة الناعمة التي تعتمد في المقام الأول على الغزو الثقافي، الذي يستلزم مواجهته بضرورة بناء وعي نقديّ، وإصلاح تعليمي، وثقافة قوية تحافظ على الخصوصية، وتفتح آفاق التفاعل المتوازن مع الآخر.

ثانياً: إنّ الهيمنة المعاصرة لا تقوم على الاحتلال العسكريّ فحسب، بل على احتلال العقول، وطمس الهويّات، والمرجعيات؛ ولذلك يجب أن ننتبه جيداً لتلك الآليات وتقويتها وحمايتها.

ثالثاً: إنّ الثقافة لم تعد ترفاً فكرياً وإنّما أصبحت سلاحاً خفياً تستخدمه القوى الكبرى لإعادة تشكيل وعي الشعوب بما يخدم مصالحها.

رابعاً: إنّ مقاومة الاستعمار الثقافي لا تكون بالعزلة والتفوق حول الذات، بل بالوعي النقديّ، والقدرة على الاختيار الواعي بين ما هو مفيد وما هو مدمر للهوية. وبناء ثقافة إسلامية قوية تحافظ على الخصوصية وتفتح آفاق التفاعل المتوازن مع الآخر.

خامساً: إنّ الدفاع عن ثقافتنا الإسلامية لم يعد خياراً يمكن ألا نختاره أو نرجئه، بل أصبح قضية وجودٍ ومصيرٍ راهنة في عالمٍ تزداد فيه أشكال السيطرة الناعمة تعقيداً وعمقاً.

التوصيات:

حماية الثقافة الإسلامية: بأن تقوم المؤسسات الثقافية العامة في شتى بلاد الإسلام بواجبها في حماية ثقافتنا الإسلامية من تأثير الثقافة الغربية وهيمنتها؛ لما لذلك من أهمية قصوى خاصة في عصر العولمة، وذلك عن طريق إنتاج برامج مرئية، وإصدار نشرات وكتيبات ومطبوعات دورية تعرض وتحلل وتنقد محتويات الثقافة الغربية، وترد على شبهاتها، وتفضح حقيقتها، وتبين كيف أنّها أشقت الإنسان في دنياء، وتكاد تفسد عليه آخرته إن لم ينتبه لحبائلها الشيطانية.

إصلاح جذريّ للتعليم الجامعيّ وما قبل الجامعيّ: ويتمّ ذلك عبر إعادة هيكلة المناهج لتعزيز الهوية الإسلامية، وتشجيع التفكير النقديّ حتى لا يقف التعليم عند حدود الحفظ والتلقين، أو تغييب الروح الإبداعية أو الانخداع بمزاعم الثقافة الغربية حتى لا نقع في مهاوي التبعية والاستلاب مجدداً.

بناء إنتاج ثقافيّ مستقل: ويتمّ ذلك عبر تشجيع الأدب والفن والإعلام الذي يعكس القيم الإسلامية الأصيلة، وتعميق الحوار بين الثقافات، حتى لا نقع في التقوقع والانغلاق حول الذات. تحصين الإعلام من التغريبيين: تطوير إعلام وطنيّ قويّ ومستقلّ، وتوعية الجمهور بخطورة الإعلام الموجه الذي يروج للقيم الاستهلاكية أو يدعو للقيم الغربية وطمس الهوية.

استبدال النخب المشبعة بالقيم الغربية: عن طريق إفساح المجال لنخب سياسية وفكرية مشبعة بقيم الوطنية والقيم الإسلامية الأصيلة، بنحو تكون هذه النخب الجديدة قادرة على بلورة مشاريع مستقلة، وتقديم رؤى تنموية تتجاوز النموذج الاستعماريّ الجديد وتخدم مصالح الشعوب. بدلاً من تلك النخب التي شكّلها الاستعمار وجعل منها أبواباً تنشر فكره وثقافته على أنّها الثقافة الأرقى.

تعزيز الوعي النقديّ: نشر الوعي بخطورة (القوة الناعمة) التي تدعو إلى تبني القيم الغربية، والتحذير من خطورة استخدام قيم الرأسمالية للسيطرة الأيديولوجية، والتنبيه إلى خطورة استبدال القيم والمفاهيم المجتمعية والعادات والتقاليد الغربية بالقيم والعادات والتقاليد الإسلامية الأصيلة.

قائمة المصادر والمراجع

١. ابن خلدون، مقدّمة ابن خلدون، ج ١، تحقيق عبد الله الدرويش، توزيع دار يعرب، ٢٠٠٤.
 ٢. إسماعيل علي محمد، الغزو الفكري: التحدي والمواجهة، دار الكلمة للنشر والتوزيع، المنصورة، ٢٠١٣.
 ٣. أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، دار الكتاب اللبناني / مكتبة المدرسة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣.
 ٤. حسن حنفي، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٢.
 ٥. رياض نجيب الريس، عودة الاستعمار، فصل بكتاب: عودة الاستعمار من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج، رياض الريس للكتب والنشر، لندن/قبرص، الطبعة الأولى، ١٩٩١.
 ٦. سلامة موسى، اللغة الفصحى واللغة العامية ورأي السير ويلكوكس، مجلة الهلال، ع ١٠، السنة ٢٤.
 ٧. عبد الستار فتح الله سعيد، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الخامسة، ١٩٨٩.
 ٨. عبد الوهاب المسيري، العالم من منظور غربي، كتاب الهلال العدد (٦٠٢)، دار الهلال، القاهرة، فبراير ٢٠٠١.
 ٩. عصمت نصار، فكرة التنوير بين لطفي السيد وسلامة موسى، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٤.
 ١٠. كوامي نكروما، الاستعمار الجديد آخر مراحل الإمبريالية، ترجمة عبد الحميد حمدي، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٦.
 ١١. محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٩.
 ١٢. يوسف القرضاوي، الحل الإسلامي فريضة وضرورة، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٧.
- ### المراجع الإلكترونية.
١٣. الثقافة الاستهلاكية وتدمير الذات.. قراءة فلسفية في أثر الرأسمالية على القيم الإنسانية، مقال إلكتروني تمّ الاطلاع عليه في ٢٠٢٦/١/١٢، على الرابط الإلكتروني التالي: <https://surl.li/tnokcl>
 ١٤. سعدي كريم سلمان، مخاطر الهيمنة على الهوية الثقافية وسبل التعامل معها، مقال إلكتروني تمّ الاطلاع عليه في ٢٠٢٦/١/٧، على الرابط التالي: <https://nawaat.org/2005/01/30/cultural-identity-recuperation>
 ١٥. عمر رحال، الاستعمار الثقافي: كأداة للرأسمالية للهيمنة الأيديولوجية لتحويل قيمها المحلية إلى معايير عالمية، مقال إلكتروني تمّ الاطلاع عليه في ٢٠٢٦/١/٨، على الرابط التالي: <https://www.wattan.net/ar/news/453274.html>
 ١٦. محمد شمس، مجتمعنا الإسلامي ونمط الحياة الغربي، مقال إلكتروني تمّ الاطلاع عليه في ٢٠٢٥/١/١٢، على الرابط الإلكتروني التالي: (<https://almaarefcs.org/4653/339>)